عصام بن شلال

القربان الأخير لعروس المطر

مسرح

موفم للنشر

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والفنون
في إطار الصندوق الوطني لتطوير الفن والتقنية والصناعة السينماتوغرافية
وترقية الفنون والآداب

01 14 06/21

ردمك : 978 - 9931 - 00 - 996 - 2
الإيداع القانوني: ديسمبر 2021

أشخاص المسرحية:

سيليا: الشابة التي قد تكون عروسا للمطر.

ماتيا: أم سيليا.

ماسي: عم سيليا.

أكسل: أخ سيليا.

قدموس: شاب فينيقي من قبرص يعمل تاجرا بحارا.

الكاهن: هو الذي يريد الزواج من سيليا.

المكان:

- كوخ بديكور أمازيغي تتوسطه طاوله خشبية، وفيه حصائر للنوم، وجرار خزفية، وهناك بعض الجلود المفروشة والمعلقة في على الحائط للزينة، مع وجود بعض القناديل المعلقة للإضاءة.

الزمان:

- مع بدايات القرن الثالث قبل الميلاد، بعد وفاة سقراط، وقبل تولي الإسكندر الأكبر الحكم.

الأزياء:

- ترتدي النساء ثيابا أمازيغية وحليا من الفضة، والرجال كذلك يرتدون الزيّ الأمازيغي (بنطال قصير وقميص طويل قليلا) ما عدا الراهب الذي يرتدي قميصا أسودًا، وقدموس الذي يرتدي ثوبا كالقميص مزركش ولونه أخضر فاتح.

الفصل الأول

ماتيا: (جالسة تطحن الحنطة برحاة حجرية) ماذا يقال في الخارج عن المطر؟

سيليا: إنهم يتحدثون عن موسم القحط.

ماتيا: (تتوقف عن الطحن) هل ذهبوا إلى الكاهن الأكبر ليجد لهم خلاصا؟

سيليا: بلى، وأخبرهم بأن يقدموا له قربانا.

ماتيا: هذه هي العادات التي وجدنا عليها آباءنا وأجدادنا، وكل هذا في سبيل استجداء السماء، وإرضاء إله المطر حتى يجود علينا بما أمسكه من غيث.

سيليا: ولكنني لا أتصور نفسي في مكان أولئك البنات العذراوات اللواتي كنّ قرابين في سبيل إنقاذ الناس من القحط، كما أنهم لا يضحون إلا ببنات الفقراء، أما الأثرياء فيحتفظون ببناتهم، أين العدلُ في هذا؟!

ماتيا: (والحزن باد عليها) آه يا بنيتي لو كان أبوك موجودا لما راودنا أي شعور بالخوف، لقد أصبحت مهيضة الجناح من دونه.

سيليا: (مبتسمة) تفاءلي يا أمي فأنا وأخي موجودان، سنعتني بك ما حيينا.

ماتيا: ليس لي شك في هذا، ولكن لولا أفضال عمك علينا وإيواؤه لنا في كوخه لأكلتنا ذئاب الجبل، وانظري إلى حال أخيك الذي فقد القدرة على الكلام وظل مصدوما منذ وفاة والده.

سيليا: (وقد اغرورقت عيناها من الحزن هي وأخوها المتكئ على حصيرة) لا تحزني يا أمي الحبيبة، (ثم تحتضنها مواسية لها ماسحة دمعها)، أمسكي هذا اللؤلؤ المنثور من عينيك، ولتعلمي بأن حزنك هذا سوف يحزن أبي الذي يشهد له كل سكان القبيلة بالشجاعة والتضحية.

ماتيا: (وهي تمسح على شعر ابنتها) أجل يا بُنيتي مازلت أذكر كيف ضحى بنفسه لكي ينقذنا من حريق الكوخ الذي احترق هو بداخله، وأصبح رمادا تذروه الرياح، لقد كان زوجا وأبا عظيما، إن أجمل شيء نملكه هو ذكراه العطرة.

ماسي: (يدخل دون أن يطرق الباب) ما بكم تبكون هل حصل خطب ما؟

سيليا: (وهي تمسح الدمع) لا شيء.

ماسي: ألا يمكن للإنسان أن يجد في هذا الكوخ وجها ضاحكا؟ أو شيئا يسر الخاطر؟ أف لقد سئمت.

سيليا: هل يزعجك أن نعيش حزننا كما نريد.

ماسي: لا تنسوا بأنكم في كوخي، ولولا أن يقول الناس أني فرطت بزوجة أخي وأبنائها لما أبقيتكم لحظة هنا.

سيليا: لو أعطيتنا حقنا من الزيتون لما كنا في حاجة إليك البتة.

ماتيا: كفي عن مجادلة عمك واذهبي لتملئي تلك الجرة بالماء.

سيليا: حاضر يا أمي، وأرجو أن أعثر في هذه الجبال على نبع ماء يروي عطشنا.

(تنصرف سيليا وهي ترمق عمها بنظرات قاسية وتغلق الباب وراءه بشدة)

ماسي: (وهو يلعب بلحيته) من الجيد أنك أرسلتها يا زوجة أخي لكي نتناقش حول بعض الأمور.

ماتيا: كُلِّي آذان صاغية.

ماسي: تعلمين بأنني أفكر على دوام في مستقبل ابنيك، حتى يعيشا حياة كريمة ولا يحتاجا إلى أحد.

ماتيا: أعلم ذلك.

ماسي: ولذلك فكرت في تأمين مستقبلهما، وكما تعلمين فإن أشجار الزيتون لم تعد تؤتي خيرها كل حين، وهذا عام القحط، فلا تتوقعي أن ننال شيئا من أشجار الزيتون التي جفت، وألقت ثمارها وتخلت، ولا أحسب أني قادر على إعالتكم بهذا المحصول الهزيل الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، بعد أن جفت المحاصيل والضروع.

ماتيا: هل سوف تتخلى عن ابنيْ أخيك، قل؟!

ماسي: لا لن أتخلى عنهما، ولكنني أسعى لكي أوفر لهما حياة أكرم من هذه وأنعم.

ماتيا: كيف يكون ذلك؟ أُدخل في الموضوع مباشرة، كفاك لفا ودورانا.

ماسي: (يتحدث بتعجرف) سأدخل في الموضوع، ولكن أودّ أن أُعْلمك بأن الكاهن الأكبر للمعبد سيزورنا بعد حين، ولعلي أقنعه بأن يجعل من ابنك هذا الأخرس خادما في المعبد، حتى تكون له حياة أكرم من هذه التي يعيشها.

ماتيا: سوف أكون ممتنة لك ما حييت.

(وفي هذا الحين دُق الباب)

ماسي: (مرتبكا) افتحي الباب بسرعة لعله الكاهن...

ماتيا: (تفتح الباب) مرحبا بك حللت أهلا ونزلت سهلا يا كبير الكهنة، لقد شرفتنا في كوخنا المتواضع الذي لا يليق بمقامك العليّ.

ماسي: (يصطنع ابتسامة عريضة) أهلا بكم شرفتمونا، لقد انتظرت زيارتكم بشغف كبير، تفضلوا بالجلوس، كي تحل علينا البركة (ثم يخاطب ماتيا) الآن أوقدي النار في الخارج واطهي لنا ديكا سمينا، وضعي على المائدة كل ما لذ طاب لنكرم ضيفنا، هيا أسرعي.

ماتيا: حاضر، عن إذنكم.

الكاهن: (وهو يضع يده على صدره) بوركت يا سيدتي.

ماسي: (ينتظر خروج ماتيا) الآن يمكننا الحديث براحة بعدما خرجت.

الكاهن: هل يمكننا الكلام بكل شيء أمام ذلك الشاب المتكئ هناك؟

ماسي: (يحكّ يديه) بالتأكيد فهو أخرس، ولا يمكنه أن ينقل ما يدور بيننا من كلام، والآن قل لي هل أحضرت كيس الذهب الذي اتفقنا علينا.

الكاهن: أحضرت نصف الذهب المتفق عليه، والنصف الآخر سوف تأخذه بعد أن تنجز وعدك الذي أحذّرك من إخلافه، هيا خذه (ويلقي له بالكيس على الأرض).

ماسي: (ينشل كيس الذهب بلهفة) إنه الصوت الذي أحب سماعه كثيرا، صوت الذهب (يضحك بشكل هستيري) ولكن أريد أن تكمل معروفك وتأخذ هذا الأخرس مع القربان الجميل الذي سوف ينام في فراشك.

الكاهن: (فاتحا عينيه بدهشة) هل أقنعتها بهذه السرعة؟!

ماسي: كما أقنعتك بأن تعطيني أغلى ما تملك، يمكنني إقناع تلك الأم البلهاء بأن تعطيك أغلى ما لديها وهي تضحك، فأنا أملك أساليب الإقناع المناسبة، فمثلا سوف أقول لها: «إن سيليا إذا اقتنعت وأصبحت قربانا فإنها سوف تُؤَمِّنُ مستقبلها ومستقبل أخيها بأن ينعما بخيرات المعبد، وبعد تحقيق ذلك يمكننا الزواج والاستمتاع بحياتنا» ألستُ مقنعا؟

الكاهن: بلى ولكن لنفترضْ بأنك أقنعت الأم التي لن ترفض عرضا مغريا كهذا، فكيف ستقنع ابنتها.

ماسي: كما تعلم يا سيدي فإن الناس الأذكياء مثلي تستطيع إقناعهم بأكياس الذهب، أما الناس المثاليون الأغبياء من أمثال سيليا فلا يمكنك إقناعهم إلا بجعلهم يرتدون دور البطولة.

الكاهن: كيف؟

ماسي: (وقد دخلت ماتيا فجأة) سوف أشرح لك كل شيء في حينه.

ماتيا: (وهي تبتسم) لقد جلبت لكما هذا الشراب اللذيذ، أما الطعام فسيجهز بعد حين، هنيئا مريئا.

الكاهن: (بعد أن احتسى شرابه بنهم) سوف أنصرف الآن وأعود لتناول الطعام في فرصة أخرى، طاب يومكم.

ماسي: هل ستنصرف قبل أن تتناول شيئا، كيف يكون ذلك؟ أرجوك أن تبقى قليلا، فإنك لا تشرفنا دائما يا سيدي.

ماتيا: فلتبق يا سيدي من فضلك، إني شارفت على الانتهاء من طهي الطعام.

الكاهن: لا عليكما فالأمر طارئ، وللمعبد مشاغله التي لا تنتهي، سوف أعود في أقرب فرصة. (ثم ينصرف)

ماتيا: (ترافقه إلى الباب ثم تغلقه) شرّفتنا يا سيدي، حلت علينا البركات.

ماسي: تعالي واجلسي فهناك ما سوف أحدثك به، اجلسي من فضلك.

ماتيا: انتظر لآتي بالطعام.

ماسي: (يمسكها من يدها ويجلسها) سوف نتناوله سوية حين تأتي سيليا، وعلينا التحادث قبل أن تأتي.

ماتيا: (متحيرة) تكلّم أنا أسمع...

ماسي: كما تعلمين فأنا منذ وفاة أخي وأنا أعتني بكم، ولا أبخل عليكم بأي شيء،كما أني لا أحب أن يمسكم أي سوء.

ماتيا: (وهي تتنهد) أعلم.

ماسي: وعلى هذا الأساس وضعت خطة في مصلحتنا جميعا، حتى أتمكن من الزواج بك، وأتبع التقاليد التي ورثناها عن أجدادنا، والتي تنص على أن يتزوج الأخ بزوجة أخيه الميت، ولأننا لن نكون على راحتنا والابنان يزاحماننا هذا الكوخ فقد فكرت بحلّ جميل.

ماتيا: قل ما هو هذا الحل؟

ماسي: في سياق التزامنا بتقاليد الأجداد فقد وجدت في سيليا نموذجا مثاليا لعروس المطر (تيسليث) التي كانت قربانا حين تمّ تزويجها بإله المطر (أنزار)، وكما تعلمين فإن سكان قبيلتنا والقبائل المجاورة إحياءً لهذا التقليد قد دأبوا على اصطفاء أجمل بناتهم، لكي يزوجوهنّ لكاهن المعبد، حتى يَكُنَّ قرابينَ في مواسم القحط،

لاسيما أنّ هذا الموسم قد كان مجدبا ولم نجن فيه من الزيتون ما كنا نجنيه في المواسم السابقة.

ماتيا: (وهي غاضبة) هل تطلب مني أن أضحي بابنتي، حتى يحقق ذلك الكاهن نزواته العابرة؟

ماسي: (يعقب غاضبا) أي نزوة يا امرة؟ فالعرس سوف يكون علنيا، ولن يكون هناك شيء نخجل منه، وما عليك سوى أن تساعديني في إقناع سيليا بهذه الفكرة، وتأكدي بأنها إن اقتنعت فسوف تكون طوق نجاة لنا جميعا.

ماتيا: كيف ذلك؟

ماسي: لأنها سوف تُؤمّن مستقبلها بأن تصبح من زوجات الكاهن مصونات، وتأخذ أخاها إلى جانبها، وهكذا أنت تطمئنين على مستقبلهما، وبعد حدوث ذلك نستطيع الزواج والبدء بحياة جديدة.

ماتيا: (بعد أن تفكر هنيهة) لقد كانت خطتك مقنعة إلى حد ما.

ماسي: إلى حدّ ما؟

ماتيا: لا بل مقنعة كثيرا، ولكن دعني أفكر كيف سأفاتح سيليا في الموضوع.

ماسي: لا تفكري ودعي الأمر عليَّ، وما عليك سوى مساعدتي بأن لا تعترضي على فكرتي، وكل شيء سيسير على ما يرام.

ماتيا: هل يسمحون لي برؤية ابنتي بعد أن تدخل ذلك المعبد؟

ماسي: أكيد سوف يسمحون لك بذلك، كما أن المعبد ليس ببعيد عن القبيلة، وسوف أحرص على أخذك لزيارتها كلما سنحت لنا الفرصة.

ماتيا: بل أريد زيارتها على الأقل مرة أو مرتين في الأسبوع، فأنا لا أستطيع التعود على فراق ابنتي بسهولة، كما أنها مازالت صغيرة، إني أخاف عليها كثيرا.

ماسي: دعي الخوف لأنها ستكون في أيدٍ أمينة، كما أنها قد كبرت ولم تبق صغيرة كما تتصورين، يمكنها الاعتماد على نفسها، وأخشى بعد هذا الكلام أن تكوني قد ترددت!

ماتيا: إنّ تَقَبُّل الأمر ليس بالسهولة التي تتصورها يا ماسي، إن مجرد التفكير في مفارقة أبنائك لشيء فظيع.

ماسي: لا يجب أن تفكري بعاطفة عندما يتعلق الأمر بمصالح أبنائك ومستقبلهم، فحتى وإن عملنا أنا وأنت طوال حياتنا فلن نتمكن من أن نضمن لسيليا حياة رغيدة مثل التي ستعيشها في المعبد، كما أن الزواج هذه الأيام لم يعد مشروعا مضمونا؛ لأن

بنات الفقراء لا يتزوجن إلا من أبناء الفقراء، فأين ستجدين لابنتك عريسا غنيًا؟

ماتيا: أنت محق في كلامك، ولكن كيف لقلب الأم أن ينصت لحديث العقل، هيهات... هيهات.

ماسي: أرجو أن تكوني قد اقتنعت، لأن عدم اقتناعك بهذا الزواج سيكون أكبر عائق أمام تقبُّل سيليا للفكرة، كما أن تأجيل الأمر لن يكون في مصلحتنا جميعا، أرجوك أن تقتنعي أرجوك.

ماتيا: (وهي تبكي) ما أصعب الرضا بهذا الأمر، ولكن لا سبيل لرفضه أو الاعتراض عليه، فمصلحة أولادي هي عندي أهم من كل شيء.

(وفي هذا الحين تدق سيليا الباب ويدخل معها شاب فينيقي تظهر عليه ملامح الحكمة والوقار، ويرتدي ثيابا تختلف عن الثياب الأمازيغية التي يرتديها ماسي، وأكسل ويحمل رمحا ويتشح سيفا)

ماسي: من هذا الرجل الغريب، ما قصته؟

سيليا: هذا الشاب اسمه قدموس وهو فينيقي، لقد أدركني في اللحظة الأخيرة إذ هاجمني الذئب، فقتله برمحه هذا الذي يحمله، فلولاه لكنت في عداد الموتى، ولهذا أصررت عليه بالمجيء معي حتى نكرمه ونشكره على بطولته التي فعل.

ماتيا: لا أدري كيف أشكرك يا بنيّ، لقد أنقذت ابنتي ولك أن تطلب مني ما تشاء.

قدموس: لا شكر على واجب يا سيدتي، فالقدر هو الذي ساقني إليها، ولو لم أنقذها أنا لأنقذها غيري، فهذا واجب إنساني، ولا يكون له مقابل أو ما شابه.

ماسي: (يخرج بعض القطع الذهبية من الكيس الذي أعطاه إياه الكاهن) كم تريد من الذهب مقابل معروفك هذا؟ خمسة، أم عشرة قطع؟ اطلب ما تشاء يا بني.

قدموس: لا يا أيها العم، أيمكن أن أقبض ثمنا لواجب قمت به؟ أرجوك لا تخجلني وأعد تلك القطع الذهبية إلى الكيس.

سيليا: (تحدث ماسي) أنّى لك هذا الذهب، وقد عهدناك معدما؟ هل وجدت كنزا؟

ماسي: (يضحك وقد فاجأه السؤال) أتعتقدين بأني لم أدخر شيئا من عمل الزيتون في كل هذه السنين؟ ولكن لأنك غالية عليّ أحببت أن أكرم هذا البطل الذي أنقذ حياتك.

سيليا: كأنك تبدو لطيفا معي اليوم على غير العادة، ما الذي تغيّر فجأة؟

ماسي: لم يتغير شيء يا بنيتي، وحتى نحتفل بهذه المناسبة سوف أذهب لأقتني الكثير من الفاكهة، وألذ الأشربة، وكل ما لذ وطاب، لنتناوله مع بعضنا البعض، عن إذنكم، وأنت يا أيها الفينيقي كن مرتاحا وكأنك في بيتك (وينصرف ماسي بسرعة وقد بدا عليه الارتباك).

سيليا: منذ متى أصبح عمي كريما هكذا؟ يا لها من مفارقة عجيبة!

ماتيا: كل شيء يتغيّر يا بنيتي، (ثم تحتضنها) المهم أنك بخير، كما أنك في أقرب وقت ستتخلصين من هذه الحياة البائسة.

سيليا: ماذا تقصدين يا أمي؟

ماتيا: سوف نناقش الموضوع على مائدة الطعام.

سيليا: أرجوك أخبريني الآن بما تخفين.

ماتيا: إن الطعام يوشك أن يحترق على الجمر، سوف أدركه وأعود.

سيليا: تحجَّجي بالطعام الآن، على كل حال سأعرف بعد حين، وإن كان الفضول سيقتلني.

(تخرج الأم مسرعة)

قدموس: هل ينوون تزويجك يا ترى؟

سيليا: (متفاجئة) أي زواج؟

قدموس: مجرّد تخمين فقط، وإن كان حدسي لا يخيب كثيرا.

سيليا: لا تَقُلْهَا، لأنك ستزيدني فضولا.

قدموس: لا عليك، ولكن ألن تعرفيني على ذلك الشاب القاعد هناك (يشير إلى أكسل).

سيليا: هذا أخي الصغير أكسل.

قدموس: تشرفت بمعرفتك يا أكسل.

(وأكسل يطأطئ برأسه مبتسما، باعثا الحيرة في نفس قدموس)

سيليا: اعذره لأنه لن يتمكن من إجابتك والترحيب بك بالكلام، بل بالإشارة.

قدموس: (مبتسما) المهم أنه يبتسم وهذا يكفي.

سيليا: (يبدو عليها الأسف ويغالبها الدمع) لقد حدثتك في الطريق إلى هنا عن الحريق الذي أودى بحياة والدي، ولم أخبرك عن أخي الذي أصبح أخرسا بفعل الصدمة.

قدموس: كما قرأت في كتب الطب فإن الذي يصير أخرسا إثر صدمة يمكن أن ينطق ذات يوم بفعل صدمة أخرى.

سيليا: (يملؤها الفرح) إني أنتظر اللحظة التي ينطق فيها بفارغ الصبر، ليت كلامك يتحقق، لقد قدمنا كثيرا من القرابين للمعبد، وقرأنا كثيرا من التعاويذ في سبيل أن يتكلم أخي ولكن كل ذلك لم يُجْدِ نفعا.

قدموس: أية قرابين وأية تعاويذ؟ لقد أصبحت هذه الأمور من الأساطير التي يقوم بها الناس البدائيون، كما أني آسف على تعبيري بهذا الشكل.

سيليا: لا تقل هذا أمام أمي وعمي، فهما يصدقان بهذه الأمور، ولن يسمحا لأحد بتسفيه أحلامها.

قدموس: وأنت هل تصدقين هذه الأشياء؟

سيليا: هذا ما وجدت عليه آبائي وأجدادي، كما أنني أحترم كل معتقداتنا وتقاليدنا، ولا أتجرّأ على الاستهتار بها.

قدموس: أنا لم أطلب منك أن تستهزئي بها، ولكن يمكنك أن لا تصدقينها بها ولا مانع في نفس الوقت من احترامها باعتبارها تراثا إنسانيا، فنحن الفنيقيين نحوز على كم وفير من الأساطير التي كانت عبارة عن طقوس دينية، وأصبحت مع مرور الوقت عبارة عن نصوص أدبية نستمتع بروايتها ولكن لا نصدّقها في ذات الوقت، هناك مثلا أسطورة عنقاء مُغْرِب.

سيليا: (بفضول) حدثني عنها.

قدموس: هو طائر أسطوريّ كان يحرق نفسه في محرقة جنائزية عند نهاية كل دورة حياة، ثم ينبعث عنقاء آخر من الرماد بجمال وشباب متجدّد، وله ريش ذهبي لامع، وأرجواني محمر كهذا العقد الأرجواني الذي في يدي.

سيليا: (وعيناها تلمعان) يا له من عقد جميل؟ لم أر مثله من قبل!

قدموس: إنه هدية مني لك، وأرجو أن يكون عربون صداقة وصفاء بيننا.

سيليا: (وهي مبتهجة) لا أدري كيف أشكرك، ولكن كيف تقدم لي هدية ثمينة كهذه؟

قدموس: الصداقة أثمن من كل شيء، كما أنني قد جئت من بلاد الأرجوان وعملي هو المتاجرة بهذا الحجر بعد أن أصنع منه أنواعا مختلفة من الجواهر.

سيليا: وأين تقع بلاد الأرجوان؟

قدموس: في الضفة الأخرى من شرق البحر تقع مدينة صيدا الملقبة ببلاد الأرجوان، والتي ولدت فيها من أب كنعانيّ وأم يونانية، ولكنهما ماتا في حروبنا ضد الفرس وملكهم داريوس الذي بسط سيطرته على صيدا وباقي المدن الفينيقية في الشرق،

ومنذ ذلك الحين وأنا أستقرّ في جزيرة قبرص، ولم أعد أذهب إلى صيدا إلا للتجارة.

سيليا: لقد أحزنتني قصتك، ولكن أخبرني عن حياتك في قبرص.

قدموس: نحن الفينيقيين نعيش أكثر حياتنا في البحر، فالسفينة هي سكني الذي لا قرار له، والريح هي وجهتي، والنجوم هي دليلي، وإن كنت أملك قصرا في قبرص، فأنا لا أمكث فيه إلا قليلا، حتى إنني اشتقت للبحر الذي سوف ألاقيه مع طلوع الفجر.

سيليا: هل ستذهب بهذه السرعة، ألن تكون ضيفنا لأيام؟

قدموس: حسب اطلاعي على حركة النجوم فإن الريح سوف تتجه شمالا ولا أستطيع تأجيل موعد إبحاري إلى قبرص.

سيليا: كيف تستطيع معرفة اتجاه الريح من مواقع النجوم.

قدموس: هذا علم قرأته في الكتب، واكتسبته من التجربة كذلك، فالحياة في البحر تعلمك الكثير، كما أن النجوم تساعدني على تحديد اتجاهاتي لأهتدي بها في المحيط الكبير.

سيليا: ألن تعلمني هذا؟

قدموس: (يتحدث بفخر) أنا مستعد لكي أعلمك القراءة والكتابة باللغة البونيقية – لغة الفينيق – ولا تنسي كذلك بأننا

نحن الفينيقيين من علّمنا اليونانيين الكتابة والقراءة، والذي فعل هذا هو قدموس الفينيقي الذي لقبني أبي باسمه، هل تعرفين قصته؟

سيليا: لا أعرفها، اروها لي...

قدموس: لقد كان الأمير قدموس نجلا لَمِلك مدينة صور المسمى أجينور، وكانت له أخت جميلة تدعى أوربا، حتى وقع الإله اليوناني زيوس في حبها، فتنكر لها في هيئة ثور أبيض جميل، وظلّ حتى أغراها لتركب على ظهره، ثم أخذها إلى جزيرة كريت اليونانية، أما أخوها قدموس فقد كلفه أبوه بالبحث عن أخته المخطوفة، فذهب إلى أرض الإغريق وأسس مدينة طيبة وجعل للإغريق حروفا كالحروف التي كان يكتب بها الفينيقيون الذين ابتكروا الكتابة، أما أخته أوربا فلم يتمكن قدموس ولا إخوته من إيجادها، كما يُروى بأنها قد تزوجت في النهاية من أستريوس ملك كريت.

سيليا: قصة عجيبة!... هل زرت هذه الجزيرة؟

قدموس: أجل أبحرت إليها منذ سنتين تقريبا، كما أنها لا تبعد عن جزيرة قبرص كثيرا، إنها جزيرة جميلة جدا، وفيها مساحات خضراء ساحرة كأنها جنة على الأرض.

سيليا: كم أحلم بزيارة البلدان التي وراء هذا البحر الأزرق، مع العلم بأنني حين كنت صغيرة لم يخطر ببالي وجود نهاية للبحر، لطالما اعتبرته مثل السماء التي لا نهاية لها.

قدموس: أحيانا يراودني نفس الشعور إذا ركبت البحر وطال بي الإبحار وقَلَّت المُؤَنُ، عندها أعتقد بأن البحر لا ينتهي إلى قرار مثل السماء تماما.

سيليا: هل أنت متزوج؟

قدموس: أنا لم أتزوج لأني لا أستقر على برّ، ولا أحسب أن هنالك امرأة ترضى بهذا، فالزوجات يحببن أن يكون أزواجهن أقرب إليهن من حبل الوريد، أين هي الزوجة التي تتقبل ظروفي وطريقتي في الحياة؟

سيليا: لابد أن تجدها ذات يوم.

قدموس: أرجو ذلك.

ماتيا: (تنادي من وراء الباب) سيليا... سيليا... تعالي وساعديني على حمل أطباق الطعام.

سيليا: حاضر يا أمي أنا قادمة (ثم تكلم قدموس) استرح هنا على هذه الطاولة سأعود.

(وفي هذه اللحظة يعود ماسي حاملا معه أكياس الفاكهة وجرة من الشراب)

ماسي: (يخاطب سيليا) خذي معك أكياس الفاكهة، كما أني قد جلبت لك شراب الفرولة الذي تحبينه.

سيليا: (باسمة) شكرا لك يا عمي العزيز (تأخذ الأغراض وتنصرف).

ماسي: (يكلم قدموس) لم أتيت إلى هذه القبيلة أيها الفينيقيّ؟ كيف أتت بك الصدف؟

قدموس: أنا هنا بغرض التجارة، ولأني أهوى الاصطياد فقد تغلغلت في هذه الجبال والغابات المحيطة بكم، فكان ذلك سببا في نجاة سيليا، وفي حصولي على فرو ذلك الذئب الذي سأبيعه بثمن لا بأس به، كما أنني تعرفت على عائلتكم الكريمة، ولحد الساعة فأنا محظوظ كما لم أكن من قبل.

ماسي: (وهو يهز برأسه) هكذا إذن، فمرحبا بك في كوخنا المتواضع.

قدموس: هل تملك كل ذلك الذهب وتعيش في مثل هذا الكوخ؟

ماسي: (وقد فاجأه السؤال) ليس كما تظن، فعندي مشاريع

كثيرة سأحققها، من ضمنها بناء بيت واسع، وشراء الكثير من الماعز والأبقار والخرفان والدجاج، ولكنني أؤجل كل مشاريعي إلى أن أتم أمرا سوف نناقشه على مائدة الطعام، وأرجو أن لا تقحم أنفك فيه.

قدموس: (مستغربا من كلامه) أكيد أنني لن أتدخّل في أموركم العائلية، ولكني لن أبخل عليكم برأيي إن حدث واستشرتموني.

ماسي: (بنبرة غاضبة بعض الشيء) إن استشرناك تكلم، وإلا فالتزم الصمت.

قدموس: اطمئن، إن كان حضوري يزعجك فسوف أنصرف.

ماسي: لا تذهب، وإلا سوف تغضب مني سيليا، كما أرجو منك أن تتفهمني، ولا تعتبر كلامي تجريحا في شخصك، فأنا رجل لا يتدخل في الشؤون الناس، ولا يحب أن يتدخل أحد في أموره العائلية، أرجو أن تكون متفهما.

قدموس: لا عليك يا عم، فأنا متفهّم للغاية.

ماسي: أيها الفينيقي تحدث معي بصراحة.

قدموس: أنا أفعل ذلك منذ البداية.

ماسي: هل لديك نية بالزواج من ابنة أخي؟

قدموس: لقد تحدثنا في موضوع الزواج.

ماسي: (يقاطعه بغضب) لقد كنت أعلم بأنك أنت هو الذئب الذي يترصد سيليا، وأن ذلك الذئب الذي قتلته كان يحمل من البراءة أكثر مما تحمله أيها الفينيقي.

قدموس: (يحافظ على هدوئه) دعني أكمل كلامي، ولا تقاطعني من فضلك، لقد قصدت بموضوع الزواج، أنها سألتني إن كنت متزوجا.

ماسي: (يقاطعه مرة أخرى) وأنت عرضت عليها الزواج أيها...

قدموس: (يقاطعه وهو منفعل قليلا) ليس كما تظن، لأنني أخبرتها بأنني رجل بحار، ليس له على البرّ قرار، ولهذا لا يمكنني أن أتزوج في ظروفي هذه.

ماسي: (وهو يتنهد) أرجو أن تكون صادقا.

قدموس: لماذا أنت متوتر يا عم؟

ماسي: (والتوتر باد عليه) من قال لك بأنني متوتر؟ كما أنني لست كبيرا في السن حتى تناديني بـ«عمي»، هل أبدو كبيرا إلى هذه الدرجة؟ انظر جيدا إلي، مازلت شابا.

قدموس: (يبتسم ساخرا) بالفعل تبدو شابا يا سيدي، ولكني ناديتك بعمي من باب الاحترام فقط، أنا أعتذر منك.

ماسي: (يتحدث بعجرفة) أقبل اعتذارك هذا ولن أتقبل اعتذارات أخرى.

قدموس: ماذا تقصد؟

ماسي: أعتقد بأنك نبيه بما يكفي لتفهمني.

قدموس: (يفكّر قليلا) آه لقد فهمتك الآن، أنت تقول لي: «لا تكرّر الخطأ حتى لا تضطر لتكرير الاعتذار» وأنا أقول لك: «لم ولن أخطئ البتة في حق أي أحد داخل هذا الكوخ أو خارجه، كن واثقا من ذلك».

ماسي: أنا أشتم رائحة الأخطاء وأتنبأ بها، حتى إنني أعتبر وجود شخص غريب داخل كوخي خطأ.

قدموس: (وقد بدا عليه التذمّر) خطأ؟! ما الذي تهرف به بدل أن تشكرني.

ماسي: لقد شكرتك، ولكنني الآن أشك في نواياك خاصة بعدما رأيت العقد - الذي كان في يدك عند خروجي من البيت - على جيد سيليا، إياك أن تفكر في إغوائها بالهدايا.

الفصل الثاني

قدموس: (وقد غلبه التذمر) إن الحوار معك متعب، وجالب للغم، فلا يمكن لشخص يفكّر بهذه الطريقة السيئة إلا أن يكون سيئا.

ماسي: (يمسك بياقته) هل ستهينني في كوخي؟

قدموس: (يحاول إبعاده) اتركني... اتركني... أيها المجنون...

(دخلت ماتيا وسيليا تحملان الأطباق)

ماتيا: (تلطم خدها متفاجئة بعد أن سقط طبق من يدها) ما الذي تفعلانه؟ هل هكذا يُعامل الضيوف يا ماسي؟

ماسي: (وهو يرتب ثوب قدموس ويمسح عليه) لقد كنا نتمازح فقط، أليس كذلك يا قدموس؟

قدموس: (وهو يصطنع ابتسامة وينظر في عيني ماسي) أجل يا سيدتي، لقد دار بيننا مزاح ثقيل قليلا.

ماتيا: هيا لنجلس على مائدة الطعام (ثم تنادي أكسل) تعال يا بني واجلس معنا، لا بد أنك جائع.

(ثم تجلبان الفاكهة والشراب ويجلس الجميع على المائدة ويباشرون في الأكل والشرب).

ماسي: علينا الاستمتاع بهذه اللحظات العائلية الجميلة، لأننا قد نشتاق إليها ذات يوم.

سيليا: ما معنى هذا الكلام يا عم؟

ماتيا: (تقاطعهما) دعنا نستمتع بطعامنا على الأقل، لماذا أنت متسرع ولجوج دائما؟

ماسي: أنا لست كما تدعين، إنما أنا إنسان صادق، وآتي كل الأمور من أبوابها.

سيليا: أنا لا أفهم شيئا من هذه الألغاز! أيمكن أن تشرحوا لي الوضع؟

ماسي: (تحاول ماتيا إسكاته ولكنه يواصل الكلام) سوف أكون أوضح معك من الشمس.

سيليا: (وهي تنظر في عينيه) أنا أسمعك.

ماسي: (وهو يتهرب من النظر في عينيها) تعلمين يا ابنة أخي بأن لك مكانة كبيرة في قلبي، منذ أن تركك أخي أمانة في عنقي حملتها كل هذه السنين، وقد آويتكم في كوخي وأوليت لكم رعاية خاصة كما أني لن أدوم لكم إلى الأبد، فلا بد أن نفترق ذات يوم.

سيليا: (تقاطعه) أنت محق يا عمي، ولكن أريدك أن تخالف عادتك وتتكلّم بلا مقدمات.

ماسي: تريثي يا بنيّتي لأنه لا يمكنني أن أكون مقنعا بغير هذه المقدمات التي لا تهمك.

قدموس: (يضحك ساخرا من ماسي ويتحدث بصوت خافت) مقنع أم مخادع؟

ماسي: (ينظر إليه بغضب) ماذا قلت أيها الفينيقي؟

قدموس: لا شيء، أنا أحدث نفسي.

ماسي: ألم نتفق بأنك لن تتدخل في شؤوننا العائلية؟

قدموس: بلى.

ماسي: إذن تناول طعامك ودعني أكمل كلامي مع ابنة أخي من فضلك.

قدموس: كل الحق معك، فما أنا إلا ضيف ولا يحق لي التدخل في شؤونكم.

ماسي: (يحدث سيليا) لأنني متيقن من أنك تحترمين عادات وتقاليد القبيلة المقدسة، سوف أسألك عن رأيك في قربان عروس المطر.

سيليا: لقد كنت دائما أشفق على العذراوات اللواتي يُزَوَّجْنَ للكاهن، وفي نفس الوقت كنت أعجب بشجاعتهن وتضحياتهن

لتحقيق مصلحة القبيلة، مثلما ضحت «تيسيليث» من قبل وتزوجت من «أنزار» إله المطر، حتى تنقذ قبيلتها من الجفاف.

ماسي: وهل تمنيت يوما أن تصبحي عروسا للمطر؟

سيليا: (يظهر عليها الغضب) بالتأكيد لا أتمنى ذلك، هل تنوي تزويجي لذلك الكاهن البدين مثل أولئك المسكينات؟

ماسي: هن يتزوجن أمام الملأ ولا يفعلن أي شيء يُخجَلُ منه، كما أن الزواج من الكاهن والعيش في نعيم المعبد شيء تتمناه كل فتاة في هذه القبائل الفقراء أهلُها.

سيليا: هل تنوي إقناعي بالزواج من ذلك الكاهن؟

ماسي: وهل نحن من أغنياء القبيلة؟

قدموس: إن كنتم مضطرين لتزويجها من أجل المال فأنا مستعد لتقديم يد المساعدة.

ماسي: (يقاطعه) ومن قال لك بأننا سنزوجها من أجل المال؟ نحن نلتزم بالتقاليد التي توارثناها أبا عن جد، وأود أن أنبهك بأن لا تتدخل بيننا، لأننا لم نطلب المساعدة من أحد.

ماتيا: (تتدخل) يُستحب أن نناقش الموضوع بلا غضب.

سيليا: إن الموضوع متعلق بي وأنا التي يُفترض أن تكون

متوترة، ولكن ألا ترون بأنني هادئة كالشاة التي تُساق إلى الذبح بيد راعيها وهي لا تدري.

ماسي: (وهو متوتر) من الراعي ومن الشاة، ما الذي تقولينه يا ابنتي؟ أتعتقدين بأني قد أريد لك السوء؟ أنا عمك ألا تعرفينني؟

سيليا: أقول ما أحس به بلا مواربة ولا مقدمات.

ماتيا: (تحدث سيليا) ثقي بعمك يا بنيتي فإنه لا يشاء لك السوء، إنه يفكر في مصلحتنا جميعا، فما عليك سوى أن تسمعيه إلى الأخير، وإن لم تقتنعي فأنت غير مجبرة على أن تكون عروسا للمطر أو ما شابه ذلك، فسعادتك فوق كل اعتبار.

(يسود الصمت هنيهة)

ماسي: ما قالته أمك هو الصحيح، فأنت لست مجبرة على شيء، ولكن أعلم كما تعلمين بأنك مثل أبيك تحبين التضحية من أجل الآخرين، فإن لم يكن من أجل القبيلة فلتكن تضحية في سبيل ضمان مستقبل هذه العائلة.

سيليا: (تحدث ماسي) ما هي التنازلات التي قدمتها حتى توافق على هذا الزواج.

ماسي: وأنا أيضا أفعل هذا من أجل الصالح العام، أتعتقدين بأنه من السهل علي التفريط بك؟ ولكن هذه المواقف تفرض علينا عدم التفكير بشكل عاطفي، لاسيما وأننا لا نستطيع العيش كما نريد، لقد تحدثت مع الكاهن ووافق على فتح أبواب المعبد لأخيك حتى يصبح من حاشية المعبد الظافرين بنعيمه وبكل ما لذ وطاب هناك، شريطة أن تكوني أنت عروس المطر لهذا الموسم، لأنك واحدة ممن تتوفر فيهن الشروط من جمال فائق وصوت رائق مثل «تيسيليث» بالضبط، وكما تعلمين فإن أجمل بنات القبيلة الفقيرات ينتهي بهن المطاف زوجات للكاهن في موسم يحل فيه الجفاف لاستسقاء الغيث من إله المطر، فكوني أنت المنقذة والبطلة التي تضحي بسعادتها من أجل حياة الآخرين.

سيليا: هكذا إذن، فهذا أمر دُبِّرَ بليل، وما أراني إلا مجبرة على القبول، لاسيما وأن الأمر متعلق بمصلحة أخي.

ماسي: يجب أن تفكّري بشكل منطقيّ، لأنك إذا وافقت فسوف تضمنين مستقبلك ومستقبل أخيك الذي سوف يكون إلى جانبك على الدوام كي تنعما بخيرات المعبد.

سيليا: يجب أن أفكر في الأمر فمن الصعب اتخاذ قرار كهذا بتسرع، أمهلني بعض الوقت.

ماسي: يجب أن تقرري الآن، لأن العرس سيكون غدا، والكاهن ينتظر مني خبرا.

ماتيا: (تقاطعه) لم تقل لي بأن الأمر سيتم بهذه السرعة!

ماسي: السرعة في اتخاذ القرارات تجنبنا التراجع عنها، وأسوء قرار أفضل من التردد.

سيليا: (وقد غلبها الدمع هي وأخوها وأمها) ما أسهل قول الحكمة حين لا تكون أنت هو الذي يتخذ القرار الصعب، حقا لقد اختلطت علي المشاعر، واصطرعت فيّ الخواطر والأفكار، ليتني كنت فريسة لذلك الذئب قبل أن أوضع في هذا الموقف.

ماسي: هذه القرارات الصعبة والحاسمة هي التي تغيّر مجرى حياتنا إذا تعاملنا معها بشجاعة، أمّا إن جَبُنّا وترددنا فسنبقى خائبين ونادمين طوال حياتنا.

سيليا: (تحدث ماتيا) وأنت يا أمي ما رأيك في هذا الزواج؟ هل تتفقين مع عمي فيما ذهب إليه، أم عندك رأي آخر؟ لأن رأيك أنت بالضبط هو الأهم بالنسبة لي.

ماسي: (يقاطعها) هكذا إذن رأيُها أهم من رأيي؟

سيليا: (ببرودة) كما سمعتَ وفهمت.

ماتيا: (تحدث سيليا بتأثر وحنان) تدرين يا بنيتي الجميلة بأني أحبك أكثر من نفسي، وبأنك عندي بمثابة الروح من الجسد، فأنت النور الذي أبصرت به في هذه الحياة التي لم تُرني شيئا جميلا سواك، لقد ربيتك منذ الصغر على احترام الجمال والحب والأخلاق، وطالما رأيتُ في عيونك غدا مشرقا بالأفراح، ولكن منذ وفاة والدك أصبح أملي خوفا، وصارت أحلامي هواجس، وقد كنت على تردد مما قاله عمك لا ألقى له قبولا في نفسي حتى حدثت معك واقعة الذئب، فماذا لو لم يكن هذا الشاب الشجاع هنالك؟ (تشير إلى قدموس) هل كنا سنخسرك إلى الأبد من أجل بعض الماء؟ (وقد غالبها الدمع) أنا لا أستطيع أن أتحمل فقدان فرد آخر من عائلتي.

سيليا: (وهي تمسح دمع أمها) لا تحزني يا حبيبتي، فأنا بخير ولم يصبني أي مكروه، كما أنني أُقدّر خوفك علي.

ماتيا: (تتأمل وجه سيليا وهي تلاعب خصلات شعرها) آه يا صاحبة الوجه المقمر، والشعر الذهب، والعيون السماوية، أنا لا أشبع من النظر إلى إشراقك الدائم، ولكن لابد أن يعقب النهار ليل معتم الروح، حين أراك تبتسمين أو تعبسين تكونين أجمل الباسمات والعابسات، ولو كان الحكم للقلب لما أحببت فراقك

أبدا، غير أن تحكيم العقل والنظر إلى مصلحتك ومصلحة أخيك تحتم علي القرار المرّ، وتجعلني أرتضي فراقا لا أرضاه، وأعايش شعورا لا أتمناه (وتجهش بالبكاء).

(وتبكي الأم والبنت والأم ما عدا ماسي الذي اصطنع بعض التأثر، أما قدموس فقد بدت عليه الحسرة والتوتر)

ماسي: (يحدث سيليا) هل أنت موافقة الآن، خاصة بعد سماع رأي أمك المهم والصادق، إن الأم لا تحب لأولادها إلا الخير، هذا حتى لا تعتقدي بأني الوحيد الذي يرى في هذا الزواج خيرا لك ولنا جميعا.

قدموس: لا أدري أين هو الخير الذي تتحدث عنه، وهذا أنت ترغم ابنة أخيك على الزواج من كاهن مخادع يزعم بأنه يأتيكم بالغيث إذا أنتم زوجتموه أجمل بناتكم، إن معرفة أوقات المطر شيء لا علاقة له بالكهانة والتخمين.

ماسي: (يشتعل غضبا) أيها الفينيقي لا تتفلسف علينا فنحن هنا لسنا في اليونان وما شابه، وإياك... إياك أن تتطاول على معتقداتنا وتقاليدنا المقدسة، فهذا ما وجدنا عليه آباءنا الأولين فلا تُسَفِّه

أحلامنا فتكون من النادمين، ولولا حق الضيافة لأخبرت أهل القبيلة بسفاهتك هذه، وإذن لصلبوك على أشجار الزيتون لتكون عبرة لكل من تسول له نفسه أن يتطاول على معتقداتنا وتقاليدنا الموروثة.

قدموس: ليس كل ما نرثه عن آبائنا يكون صحيحا، حتى إنّ كثيرا من الأخطاء يفعلها الناس في إطار المقدس تبطل مفعول العقل، فيصير الاعتراض العقلاني عليها كفرا وسفاهة.

ماسي: هكذا إذن، أنت لا تخاف من تهديدي.

قدموس: ولم أخاف، لست أفضل من سقراط الفيلسوف اليوناني.

ماسي: ومن سقراطك هذا؟ ما قصته؟

قدموس: عاش هذا الفيلسوف في أثينا وكان معلما عظيما تتلمذ على يديه الكثير من الفلاسفة الذين يدينون برأيه وعلى رأسهم أفلاطون، لقد حاول سقراط غرس الوعي في عقول طلابه من خلال الجدل والحوار البناء، فدعا إلى تجاوز تلك الأسطوريات التي كانت تسيطر على عقول اليونانيين، ومن ذلك أن ما يجمع عليه الناس لا يكون نافعا لهم دائما، فالسائد والمُتفق عليه لا يكون صحيحا بالضرورة، وعلى هذا الأساس اتهم

بالهرطقة والكفر وإفساد عقول الشباب فحُكم عليه بالإعدام، ورغم أنه كان بمقدوره الفرار من السجن إلا أنه اختار أن ينتحر بنفسه، ونفذ الحكم بكل هدوء متناولا كوبا من سم الشوكران، وبموقفه الشجاع هذا كان بطلا في أعين طلابه من الفلاسفة، هذا ما سمعته منذ أيام من أحد البحارة اليونانيين.

ماسي: (يضحك هازئا) إن شئت فتناول كوبا من السم وانتحر كما فعل سقراطك ذاك، وكن بطلا أو فيلسوفا أو شيئا مما يكبر في نفسك، فأنا أعتقد بأنهم كانوا محقين في إعدامه، لأنه لا يحق لأحد أن يخرج على ما أجمع الناس عليه، مثلما تفعلُ أنت الآن إذ تهزأ بتقاليدنا المقدسة، كما أنني متأكد بأن البطل الحقيقي هو الذي يدرك مصلحته ويعرف كيف يتعايش مع كل الظروف.

قدموس: (وهو متذمر) أعتقد بأن الحوار معك لا ينفع، ولا داعي لإطالته أكثر.

ماسي: أنا أملك الحقيقة المطلقة وأنت لا تحاول إلا مخالفة المألوف، ولذلك لا يمكنك إقناعي بفلسفتك التي تتطاول بها على المقدسات.

سيليا: (وهي غاضبة) كفاكما جدلا ودعوني أتخذ القرار الذي أراه صحيحا.

ماسي: (مبتسما) هذا هو الكلام الصحيح لا ما قاله هذا الفينيقي الذي يريد تشكيكنا في معتقداتنا والسخرية منها.

قدموس: (يحدث سيليا وقد امتلأت عيناه تعجبا وذهولا) هل ستوافقين على هذا الزواج المخزي، وتفرطين في أحلامك الوردية؟

سيليا: (وقد بدا عليها الانهزام والإذعان) للأسف فأنا مجبرة على اتخاذ قرار الآن، ولا أهتم إن كان صوابا أو خطأ، فإذا كان فيه مصلحة عائلتي فهو الأصح وإن كان لا يلتقي مع أحلامي التي مهما كبرت ستبقى أضغاث أحلام، فمهما يكن سأبقى تلك الفتاة التي لم تؤت من الحظ بقدر ما أوتيت من الحسن، ولحسن حظ عائلتي أن جمالي الماديّ هذا سيكون فيه خلاص لها من براثن الفقر والمأساة.

ماسي: (وهو يحك يديه وعيناه تلمعان) هل يمكنني الآن الذهاب بهذه البشرى إلى الكاهن الذي سوف يكون من المسرورين.

ماتيا: تريث قليلا، وقل لي كيف ستتمكن من تجهيز العروس بين ليلة وضحاها؟

ماسي: (وهو يضع يده على صدره) اطمئني ودعي هذا الأمر للكاهن الذي سوف يتكفّل بتجهيز أجمل عروس في الدنيا.

قدموس: (يحدث ماسي) تبدو مستعجلا وكأنه عرسك أنت.

ماسي: (وهو يبتسم باستهزاء) لن تستطيع تعكير مزاجي بكلامك السخيف هذا، غير أني مع هذا أدعوك لحضور العرس حتى تتعرف على عاداتنا وتقاليدنا في إحياء الأفراح.

قدموس: لا يمكنني الحضور لتلك المأساة التي سوف تقام غدا، لأنني سوف أبحر مع طلوع الفجر بعيدا عنك وعن تقاليدك وعاداتك السيئة.

ماسي: (يخاطبه هازئا) كما تشاء، وإن شئت أحضرت وأنا راجع من المعبد بعض السم، لتلتحق بذلك الفيلسوف الأحمق.

قدموس: (وقد بدا عليه الانزعاج) إن مزاجي لا يسمح لي بسماع مزاحك الثقيل، فامضِ إلى كاهنك وبشره بما يفرحُه ويحزنُ غيره.

ماسي: (يحادث ماتيا وسيليا) هل أجلب لكما شيئا في طريقي، إن كنتما تحتاجان إلى أي غرض فلا تخجلا مني.

سيليا: (تجيبه ببرودة ونفور) لا نحتاج إلى أي شيء.

(يخرج ماسي مهرولا ولا تكاد الأرض تحمله من شدة الفرح، حتى ينال حصة أخرى من الذهب كتلك التي نالها من قبل)

سيليا: لا أفهم شيئا في هذا الرجل، بالأمس كان أبخل الناس أجمعين، وها هو اليوم إنسان آخر كريم، فمنذ عرفته لم يسألني إن كنت أحتاج إلى شيء، فما الذي تغيّر يا ترى؟

ماتيا: كل شيء يتغيّر مع الوقت يا بنيتي.

قدموس: إلا جوهر الإنسان لا يتغيّر، ومعدن هذا الرجل لن يتغيّر فجأة، لا بد أن يكون وراء كرمه المفاجئ أمر دُبّر بليل، ولَسوف يكشفه الصباح.

ماتيا: مهما كانت الصفات السلبية التي في ماسي، فلن أصدق بأنه قد يُغرر بابنة أخيه، أو يريد لها السوء، فأنا أثق فيه كل الثقة.

سيليا: وما هو مخططكما بعد ذهابي أنا وأخي من هذا الكوخ؟

ماتيا: (وقد غلبها الارتباك) لا أدري، المهم أن تكونا بخير، وأنا سوف أتدبر أمري.

سيليا: أرجوك يا أمي أجيبيني بصراحة، لقد ربيتني على الصدق ولا بد أن تلتزمي به أنت أيضا.

ماتيا: (يسود الصمت للحظات ثم تتكلم بصعوبة بالغة وهي مطأطئة رأسها) لقد عرض عليّ عمك الزواج حسب ما تقتضيه تقاليد القبيلة.

سيليا: (وقد فاجأها الجواب) ألا يمكن لهذه التقاليد أن تجعل منا أناسا مسرورين؟ ولكن رغما عنا سوف نلتزم بها وإلا سوف نصبح حديث أهل القبيلة، خاصة وأنكما قد أجلتما زواجكما كثيرا بسبب بقائنا معكما تحت سقف واحد.

ماتيا: لا تقولي هذا، إنكما لم تزعجاني بتاتا، حتى إنني أستصعب لحظة فراقكما كثيرا، وكم أود أن أموت على أن أعايش تلك اللحظة التي سنفترق فيها، لكن تأكدا بأنني سوف آتي لزيارتكما كلما سنحت لي الفرصة.

(يسود الصمت للحظات حتى يكسره صوت شاب يقول: «أمي... أمي» بصعوبة كبيرة في النطق، وإذا به أكسل ينطق لأول مرة منذ حادثة الحريق)

سيليا: (وقد انقلب حالها من الحزن إلى الفرح وهي لا تكاد تصدّق) هل تسمعين ما أسمع يا أمي؟ إن أخي قد عاد إلى الكلام مجدّدا...

ماتيا: (وقد أخذت ابنها في الأحضان وامتزج دمعها بفرح هستيري) منذ زمن وأنا أتمنى أن أسمع هذه الكلمة من لسانك مجددا، ما أسعدني بك يا عزيزي!

سيليا: كيف عاد إليك الكلام يا أخي؟

أكسل: (يتحدث بصعوبة بالغة) لقد عدت إلى الكلام منذ أسابيع، غير أني أخفيت الأمر عنكم ولاسيما عن عمي.

ماتيا: (تقاطعه) لماذا يا بنيّ؟ كيف تخفي عنا أمرا جميلا كهذا؟

أكسل: أعتذر يا أمي، لأني اضطُررت لإخفاء الأمر حتى أكشف ما يُخطط له عمي، فقد صار الكاهن يتردد إلى هنا بكثرة في الآونة الأخيرة للاتفاق مع عمي على الزواج من سيليا، وكانا يتحادثان بكل راحة لاعتقادهما بأنني أخرس ولا يمكن أن أكشف أمرهما.

قدموس: (يقاطعه) وما الأمر الذي كانا يدبرانه؟

أكسل: اتفق عمي مع الكاهن على تزويجه سيليا، على أن يعطيه الكاهن كيسين من الذهب مقابل إقناعها بالأمر.

سيليا: (وهي غاضبة) هكذا إذن، يعتقد بأني سلعة تباع وتشترى، والخبيثُ يريد إقناعي بأن الزواج في مصلحة الجميع، في حين هو الذي يسعى وراء مصلحته الخاصة، وأنت يا أمي كيف استطاع خداعك؟ لأنني متأكد بأنك لا تعلمين بشأن الذهب.

ماتيا: آه لقد خدعنا جميعا ذلك الذئب.

قدموس: لم يفت الأوان بعد، يمكننا تدارك الأمر، وكما أنقذت سيليا من ذلك الذئب البريّ سوف أنقذها من هذا الذئب البشري.

ماتيا: (تتحدث بغضب) سأنتظره ليأتي وأواجهه بالأمر حتى ألغي هذا الزواج.

سيليا: (وهي تبكي) عمي ليس مشكلة ونستطيع مواجهته، ولكن كيف سوف نجابه الكاهن وسدنة المعبد الذين لا يرحمون من يخالفهم أو يعصيهم.

أكسل: (يتحدث بشجاعة) أنا هنا وسأحميكم من كل مكروه، وسوف نتجاوز هذه المشكلة معا.

قدموس: عليكم أن تضعوا ثقتكم فيّ، وسوف أخرجكم من هذا المأزق.

سيليا: (تُحدث قدموس) أرجوك لا تقحم نفسك في هذه الورطة، كي لا تتأذى.

قدموس: ركزوا معي، إن هذه المشكلة لا يمكن معالجتها بالمواجهة المباشرة، بل بالحيلة والدهاء، فإن أردتم النجاة فما عليكم سوى الالتزام بتعليماتي.

ماتيا: (وقد بدا عليها الخوف والفضول) أعدك بأننا سنلتزم بها.

قدموس: سوف تتظاهرون أمام ماسي بأنكم لا تعلمون شيئا، ولا تشعروه بأنكم قد كشفتم أمره، ولاسيما أنت يا أكسل لا تكشف له بأنك أصبحت تتكلم كي لا يشك أبدا، واستغفلوه حتى يخلد إلى النوم ثم الحقوا بي إلى الميناء الشمالي كي نبحر مع طلوع الفجر.

سيليا: خطة جميلة لو أنها تكلل بالنجاح.

ماتيا: أتمنى ذلك يا ابنتي، ولكن إلى أين سنذهب معك يا بني؟

قدموس: سوف آخذكم إلى جزيرة صقلية أين أسكن، فأما أنتما ستظلان في القصر، وأما أكسل فسوف يرافقني في كل رحلاتي البحرية، وهكذا تنجون من هذا الجحيم، ويبقى ماسي الخائن هنا كي يواجه المشكلة التي افتعلها بمفرده، لكي يجني ما زرعت يداه.

أكسل: (وقد غمرته السعادة) وأخيرا سوف يتحقق حلمي بأن أصبح بحارا.

سيليا: (تحدث قدموس) نحن ممتنون لك كثيرا.

ماتيا: لولا القدر الذي ساقك إلينا لكنا ضحايا لهذه اللعبة القذرة، إنك ابن القدر لا محالة.

قدموس: (يتحدث بتواضع) تأكّدي يا سيدتي بأنني لا أقدم لكم معروفا، بل هو واجب تفرضه عليّ إنسانيتي، فمن المحال أن أجد مظلوما ولا أنصره، والآن سوف أنصرف لكي أنصب أشرعة السفينة، سوف أنتظركم، وإياكم أن تُشعِروا ماسي بأي شيء.

ماتيا: اطمئن يا بني، رافقتك السلامة.

(ينصرف قدموس بسرعة، ثم يسود الصمت للحظات، والأم تمشي ذهابا وإيابا والقلق بادٍ عليها).

ماتيا: (تحدث أكسل) اجلس هادئا وإياك أن تبدي أية ردة فعل تجاه عمك، حتى لا يشك فينا، ولا تنسى الالتزام بتعليمات قدموس.

أكسل: حاضر يا أمي، كما تأمرين.

ماتيا: (تحدث سيليا) وأنت تعالي كي أُمشط شعرك كي نتظاهر بتجهيزك للعرس، اقتربي يا بنيتي الجميلة، وناوليني مشطك العاجيّ.

سيليا: حاضر يا أمي.

ماتيا: (تغني بصوت شجيّ وهي تمشط شعر ابنتها)

ابنتي الجميلة... رامها الذئاب

حاصروا القبيلة... وجرى اللعابُ

أقبلوا بحيلة... فانثنوا وخابوا

ابنتي الجميلة... رامها الذئاب.

(تستمر في الغناء وتمشيط شعر ابنتها حتى يأتي ماسي ويدخل بلا استئذان)

ماسي: (يحدث ماتيا هازئا) مازلت ترددين هذه الأغنية حتى كاد الذئب أن يفتك بابنتك، لولا أن أدركها ذلك الفينيقي المتفلسف.

ماتيا: أنقذها من ذئب الغاب، فمن سوف ينقذها من البشر الذئاب؟

ماسي: ما الذي تقصدينه بكلامك؟

ماتيا: لا أقصدك بالطبع.

ماسي: لا أرى ذلك الفينيقي المتطفل، هل غادر؟

سيليا: أجل غادر منذ حين.

ماسي: (هازئا) أرجو أن يلحق بسقراط.

ماتيا: لا تتحدث عنه بسوء، إن له فضلا علينا.

ماسي: إنه مجرد مزاح، والأهم أنك شرعت في تجهيز العروس الأجمل في كل هذه القبائل.

ماتيا: بلى... وهل أحضر لك شيئا لكي تتناوله قبل أن تنام؟

ماسي: لا تتعبي نفسك، اهتمي بالعروس، وأنا سوف أتناول بعض الفاكهة ثم أخلد للنوم لكي أستيقظ باكرا، فالكاهن سوف يرسل الخدم في الصباح الباكر كي يجهزوا له عروس المطر لهذا الموسم، لا أعرف كيف سأنام من شدة الفرح.

ماتيا: ولماذا تغمرك الفرحة لهذا الحد؟ هل يفرحك ما يحزنني؟

ماسي: يا امرأة أنا لست عاطفيا مثلك حتى أحزن، فهذا العرس وإن كان في ظاهره شرا فإنّ باطنه كله خير، فأنت امرأة ولهذا لا يمكنك أن تنظري إلى الأمر بشكل منطقي.

ماتيا: أنت محق، أنا أختلف عنك.

ماسي: (يشير إلى سيليا) وهذه العروس ألا تريد أن تكلمني؟ أم أنها أصبحت خرساء كأخيها؟

سيليا: (وقد بدا عليها الانزعاج) نَمْ واتركني في حالي، فمزاجي لا يسمح لي بالكلام.

ماسي: (يرفع حاجبيه) تتخذين موقفا بدل أن تشكريني، إن النساء لا يقررن بالمعروف.

سيليا: (ببرودة) شكرا لك، هل ارتحت الآن؟

ماسي: سأنام لقد سئمت من الثرثرة، إياكم أن توقظوني بضجيجكم.

سيليا: نوما هنيئا.

(تطفئ ماتيا القناديل بعد أن تخفي قنديلا وراء الباب، ثم ينتظرون صدور صوت شخير ماسي، ويتسللون للخارج، بعد أن حشوا أماكن نومهم بالقش، وبعد مرور لحظات يستيقظ ماسي على صوت الرعد والمطر فينتفض من فراشه مسرورا).

ماسي: (وهو قاعد في مكانه، يحدث نفسه) لقد كنت أنا هو المنقذ لهذه القبائل من الجفاف الذي ضربها، لا بد أن ينصبوا لي تمثالا في ذلك المعبد، فلو لم أقنع سيليا بأن تكون عروسا للمطر

لما أدركنا الغيث... (ينادي) سيليا... سيليا... سيليا... استيقظي لكي تقطفي الثمرة المبكرة لقرارك المصيري... (يتعجب) ما بها لا تجيب؟

(يتفقد أماكن نومهم فيجدهم قد وضعوا فيها القش للتمويه، فيشرع في اللطم والجري يمنة وشمالا)

ماسي: (وهو يتحسر) لا بد أنهم قد كشفوا أمري، آه لقد انتهيت... سوف يقضي علي سدنة المعبد لا محالة... لقد انتهيت...

(يسدل الستار)